الفصل الثامن

مظاهر التطور الاجتماعي : الحضارة

يقصد بالحضارة في علم الاجتماع مبلغ ما أحرزه الانسان من التقدم في العلوم والفنون وفي المهارة والتنظيم الاجتماعي وغير ذلك من الوسائل التي يسرت له السبيل الى مغالبة عوامل البيئة والمؤثرات الطبيعية وكفلت له تحسناً مطرداً في مستوى حياته المادية والاجتماعية . وحياة الحضارة نقيض الحياة البدائية التي تحكم بها العوز وغلبت فيها خشونة العيش وضاق بها أفق الحياة العامة وانعدمت العلاقات الايجابية بين المجتمعات ، وانحصرت فيها الاحساسات والمشاعر والاعتبارات الأخلاقية في حدود الجماعة ، وعم فيها استسلام مطلق الى حكم التقاليد والعادات من غير فهم أو قصد ، وافتقار الى القدرة على مواجهة ظواهر العالم الخارجي وعوارض البيئة ، وجرت فيها الحياة على وتيرة

واحدة لا مجال فيها الى التنوع فى أساليب العيش والعمل ولا الى التمايز فى التعبير عن الرغبات والميول والأذواق الذى من شأنه أن يكشف الملكات الفردية وينميها ويقوم الشخصية الاجتماعية •

ويمثل بعض علماء الاجتماع هذه الحياة البدائية بدور الطفولة بالنسبة الى حياة الحضارة التى يمثلونها بدور الرشد الذى يتسع به أفق الادراك ويكون الانسان فيه أقرب الى الصواب وأكثر قدرة على تقدير مصالحه وتوفير حاجاته المتزايدة كمية وتنوعاً ؛ ويكون الى هذا ، أقوى ادراكاً لصلة وجوده بوجود الغير وارتباط مصالحه بمصالح الآخرين وأكثر اعتزازاً بحريته وشخصيته • والحضارة بهذا الاعتبار ، تمثل ابتعادا عن الحياة البدائية فى مراحل تتسع فيها مجالات الحرية الشخصية وتنمو بها مقتضيات التعاون والتضامن الاجتماعي ويتحول فيها التحكم الاجتماعي القسري لأحكام النظام الى الخضوع الاختياري المبني على القناعة والاحساس بالمسؤولية ، ويشتد فيها الاعتزاز بالكرامة الانسانية وبحق كل فرد فى أن تتوافر له أسباب ابراز ملكاته الفردية وتنميتها والاعتزاز بشخصيته وبان يضمن له أجر ما يؤديه من الخدمات وما يقوم به من الاعمال الاجتماعية كاملا غير منقوص •

ويميز علماء الاجتماع الحضارة عن الثقافة باعتبار ان الحضارة ، كما يقول « الفريد ويبر »(Alfred Waber) وهي تقوم بالعلوم والمعارف والوسائل الآلية التى يسرت للانسان سبيل السيطرة على البيئة واستثمار

مرافقها ، تتمثل فى نمو قابل للقياس وللاقتباس ؛ فى حين ان الثقافة وهي ظاهرة تاريخية تتجلى فى شخصية المجتمع وخصائصه التى تتبدل كلما تحول من مرحلة الى أخرى ، لا تقبل القياس ولا تصلح الى النقل أو الاقتباس . وان كانت صلة الثقافة بالحضارة ، كما يقول « مكايفر » ، صلة الغاية بالواسطة ، اذ هى تتجلى بالقيم والخصائص والأهداف التى تتميز بها المجتمعات ، فى حين ان الحضارة تتمثل بما تتوسل به هذه المجتمعات من أسباب الحياة ووسائلها ؛ وهي تبدو فى أصول التفكير والتعامل وفى الآداب والفنون وفى المعتقدات والهوايات والاذواق بينما تقوم حضارة كل مجتمع بها يتوافر لديه من الأسباب والوسائل المادية فى تنظيم شؤون حياته وحمايتها وضمان دوامها . ويقول « كنزبرك » اننا وان كنا لا نستطيع أن نجزم بصواب هذا التميز بين الثقافة والحضارة ، فما من ريب فى اننا نكون أدنى الى الصواب حين نأخذ هذه الآراء بنظر الاعتبار ، ما دام هنالك فرق واضح بين عناصر الحضارة مثل المعرفة والعلم والوسائل الفنية والآلية من حيث انها قابلة للتراكم وللانتقال من جيل الى آخر ومن مجتمع الى آخر والى اطراد الارتقاء ، وبين شؤون الدين والأخلاق والآداب والفن والتقاليد وهي تبدو غير خاضعة الى عامل التراكم والى اطراد التقدم أو الى الانتقال من مجتمع الى آخر . على ان النظم الاجتماعية وهي من عناصر الحضارة وان جاز اقتباسها ـ كما يقول كنزبرك ـ فان طبيعتها تتكيف فى كل مجتمع

بحسب مقتضيات ظروفه وأوضاعه الخاصة : فالديمقراطية مثلا ، يجوز اقتباسها لكنها لا تقوم فى المجتمعات المختلفة على نسق واحد ؛ وقد أصبح الكثير من أسباب الحضارة ومظاهرها مشاعاً بين المجتمعات ، بيد أن الحياة فى هذه المجتمعات ، على الرغم من ذلك ، لا تقوم على نمط واحد .

ومما هو جدير بالاعتبار فى هذا الخصوص ، أن المفكرين الأقدمين لم يميزوا بين الحضارة باعتبار ان قوامها المهارة والمعرفة والوسائل المادية التى يستعين بها الانسان فى تدبير شؤون حياته وبين ارتقاء الأخلاق والآداب والفنون باعتبار انها من شؤون الثقافة ، وانما مالوا الى الخلط بينها ، بل كانوا أقرب الى اغفال الشؤون المادية واعتبار الأخلاق وشؤون الثقافة معياراً للحضارة ، ولذلك لم تكن لهم فكرة واضحة عن التقدم (Progress) الذى هو من أهم خصائص الحضارة ، وغلبتهم الرجعية المثالية فأتخذوا من حياة السلف مثلا عليا ، فكانوا ينظرون الى وراء ، الى عصور ذهبية افترضتها الأساطير . فالاغريق — وهم الذين كان لهم السبق فى عالم الفكر فى العهد القديم — تطلعوا فى البدء الى عهد « كرونوس »(Cronus) باعتباره المثل الأعلى والعصر الذهبي الذى عاش فيه الانسان عيشة الآلهة ، ونظروا الى الحاضر باعتباره دور انحلال وتفسخ لا سبيل الى الخلاص منه الا بالرجعة الى حياة السلف الصالح ؛ وقد ظلوا يتطلعون الى وراء حتى فى عهودهم الزاهرة ، فكانوا فى عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو ، يتطلعون

الى عهـــد « ليكـرغوس » (Lycurgus) و « صولـون » (Solon) باعتبارهما العصرين الذهبيين ؛ وكان أفلاطون يقول ان لا سبيل الى تطهير المدنية من أرجاسها الا بالرجعة الى تلك العهـود التى حكم فيها الفلاسـفة .

وكان المفكـرون الأولون يرون فضلا عن ذلك ، أن الحضـارة تجري فى فلك مسـتقر ، تارة ترقي الى الأوج وطـوراً تهبط الى الحضيض ، وقد عبر « ماركوس أورليوس » ، الامبراطور الفيلسوف ، عن هذا الرأي فقـال ان الانسـان يرتفع فى فلك الزمان حتى يحيط بمجرى الحياة ويبلغ قمة المعرفة ، ثم ينكص ويهوي الى حضيض الجهالة ، ويبقى هكذا يدور فى فلك الزمان تارة يرتفع حتى يبلغ الأوج وتارة ينحط حتى يدرك الحضيض ؛ وعلى ذلك ليس فى الوجود جديد ، فلن يشهد أخلافنا غير ما شـهدنا ، وما شـــهدنا نحن غير الذى مرّ بأسـلافنا .

وكان أول ظهور فكرة « التقدم » بمدلولها الحديث فى القرن السـابع عشـر بتـأثير « غاليلو » (Galileo Galilei) و « نيوتن » (Isaac Newton) ، فقـد صار الرجحان منـذ ذلك الحين الى الرأي القائل بأن الكون يجري على نواميس طبيعية يسـتطيع الانسـان أن يدركها وأن يلم بها بوساطة العلم ، فيتهيأ له بوساطة هذا الادراك السبيل الى توجيه حياته الى ما فيه خيره وتقدمه . وهذه النزعة الطبيعية وان

آمنت بوجـود « الخالق » المسـيّر الا انها مالت الى القـول بان ارادة « الخالق » تتجلى فى نواميس الطبيعة وفيما يدركه الانسان من الحقائق على مدى الزمان ، بوساطة المشاهدات والدراسات والاختبارات التى تؤدى به الى المعرفة ؛ وبذلك نبذت فكرة العصور الذهبية وقامت فكرة « التقدم » باعتباره حركة ارتقاء متواصل يقوم بتراكم عناصر المعرفة وتوسع مدى الادراك لحقائق الكون وأسرار الوجود • وقد بقي هذا الرأي فى « التقدم » هو المرجح حتى نهاية عهد الثورة الفرنسية ، وغلب عليه فى هذا العهد على الخصوص ، الاتجاه « العقلي » اذ مال المفكرون الى الرأي القائل بأن التقـدم صنيعة العقل الانسـاني الذى يختار ما يراه صواباً وينبذ ما يراه خلاف الصواب ، حتى رجحت عليه منذ منتصف القرن التاسع عشر ، النظرية التاريخية فى تفسير « التقدم » ، فمال المفكرون الى القول بان التقدم وليد تسلسل الأحداث التاريخية وتراكم ما تبدعه الأمم على مدى الزمان من عناصر الحضارة ومقوماتها • بيد أن الثورة الصناعية التى جرفت الحياة الأوربية بتيارها ، ربطت فكرة التقدم بالفلسفة المادية ، متأثرة بنظرية النشوء والارتقاء التى جاء بهـا « دارون » من جهة وبما أدت اليه أحداث هذه الثورة التى قلبت معالم الحياة العامة على مشهد من الناس بما أوجدته من أسباب العمران وما أدت اليه من تزايد الثروة العامة وتيسير وسائل المواصلات ونشر المعرفة ورفع مستوى المعيشة واتساع مجال الضمان الاجتماعي وتحسين الصحة

العامة من جهة أخرى ، مما عزز ثقة الانسان بنفسه وغيره من مخلوق تعبث به الاقدار الى عامل يصنع ويبدع .

ولقد تجلت أعظم مظاهر التقدم فى اتساع سيطرة الانسان على قوى الطبيعة وفى استثمار مرافقها وفيما أحرزه من القدرة على مكافحة الأمراض ووقاية نفسه منها ، وخصوصاً عقيب الثورة الصناعية وبفضلها ؛ حتى لقد كان من جملة نتائج هذا التقدم تزايد السكان تزايدا عظيماً كان بحد ذاته عاملا بعيد الأثر فى حياة المجتمع وتطوره . وواضح ان غاية هذا التقدم تبدو فى اتجاهه نحو تخفيف أعباء البيئة وتحرير الانسان من عبوديتها وتوسيع حدود الاجتماع وتيسير أسباب الاتصال من جهة ، وتبسيط الوسائل الحياتية والاجتماعية من جهة أخرى . فلو تتبعنا سير التقدم فى وسائل المواصلات مثلا ، لرأينا ان بدء التقدم فيها كان باعتماد الانسان استخدام الحيوانات فى حمله وحمل أثقاله ، ومن ثم فى اتخاذه العجلات التى تجرها الدواب والقوارب التى يحملها التيار أو يدفعها المجذاف ، حتى اكتشف السفن التى تجري مع الريح أو تندفع بقوة البخار ، ثم القاطرات والسيارات التى تطوي الأرض بقوة الغاز والكهرباء ، وأخيراً الطائرات التى تسبق الطير وتسابق الصوت فى سرعته والغمام فى ارتفاعه ؛ وهو تقدم ينطوي فى جميع مراحله على تحرير الانسان من فروض الطبيعة وقيودها وتبسيط وسائل الحياة وتيسيرها ؛ ففى استخدام الحيوانات فى وسائل

النقـل تخفيف للأثقـال ، وفى الاعتماد على العجلات التى تجـرها الدواب تيسير للنقل ، وفى اتخاذ السفن تحرير من ضرورات التقيد بطاقة الدواب وتوفير غذائها ، وفى استخدام الرياح والبخار زيادة فى التحرر وتوفير للجهد وهكـذا ؛ ومن ثم فان هذا التقدم وسـع مجال الانسان فى مضمار الحياة الاجتماعية بان يسر له الانتقال بسرعة لم يحلم بها من قبـل والى أماكن لم تخطر له ببال وقرب له المسـافات النائية وسهل عليه الانتقال كيفما شاء . وهذا التقدم يمثل كذلك زيادة فى التبسـيط والتيسير ، فالسـيارات مثلا أكثر تيسـيراً للانتقال من القاطرات التى لا تسير الا على السكة الحديد ، والطائرات أكثر تبسيطاً من السيارات لأنها لا تحتاج الى الطرق المعبدة ولا الى الجسور وتقطع البراري مثلما تجتاز البحار .

وتتجلى لنا هـذه الأهداف أيضاً اذا ما راجعنـا تطور أسـباب الاتصال بالالفاظ ، فقد كان الاعتماد فيها على صوت الانسان المحدود بطاقته الطبيعية ، حتى أكتشف البريد والتلغراف والتلفون فتحرر من حدود طاقته الجسمية ، ومن ثم زادت وسائل هذا الاتصال بساطة وسعة فى الحـدود باكتشاف البرق والتلفون اللاسلكى ، وهو لا يحتاج الى العمد والاسلاك وما يقتضى لها من جهد وصيانة .

ولو راجعنا تطور الكتابة ، من ناحيتي الحروف والطبع ، لتوصلنا الى مثـل هـذه النتـائج كذلك ، فقـد كان اعتماد الانسان فيهـا أول

الأمر على الخط حتى اكتشف الطباعة الحجرية ثم بسطها ويسرها باختراع الحروف المتحركة والآلات الكاتبة والسابكة . وكانت الحروف رمزية ، كل حرف يعبر عن فكرة معينة ، حتى ظهرت « الهيروغلوفية » و « المسمارية » فتحولت بها الحروف الى صوتية فزادت التعبير يسراً واتساعاً ، واكتشفت الحروف الهجائية بعد ذلك فانقصت عدد الحروف الى حده الأدنى وبلغت بالكتابة غاية التبسيط والتيسير ، خصوصاً بعد أن أضاف اليها الاغريق حروف العلة واستعاضوا بها عن الحركات .

وواضح ان التقدم فى جميع العلوم والفنون والوسائل الآلية لا يكون مظهراً من مظاهر التطور ولا يحمل الحضارة فى سلم الارتقاء الا اذا كان ما يحققه من التبسيط ينطوي على وفرة فى الحاصل وسهولة فى التحقيق ، وبخلاف ذلك لا يكون الا دليلا على التأخر والانحلال .

* * *

ويعتبر تقسيم العمل الذى أدى الى وجود الاختصاص (Specialization) أعظم عوامل التقدم أثراً فى تطور الحضارة ؛ ويقصد به تعيين عمل محدود أو جزء من عمل محدود لفرد أو لمجموع من الأفراد بحيث يؤدى هذا التحديد الى تقدم فى الاتقان والتحسين والى زيادة فى التيسير والتبسيط . والاختصاص يكون بحكم الضرورات الطبيعية كما هو الحال فى اختصاص المرأة بالحضانة ؛ ويكون بحكم الضرورات الجغرافية التى تؤدى الى شيوع عمل معين أو مجموع

من أعمال معينة فى المجتمع أو فى جز من المجتمع ، مثل التجارة أو الزراعة أو الصناعة ، بحيث يتأثر المجتمع كله بطبيعة هذا الاختصاص ؛ ويكون كذلك بحكم الضرورات الاجتماعية والاقتصادية التى تفرض تقسيم الأعمال الاجتماعية والاقتصادية بين الأفراد والجماعات فى كل مجتمع تيسيراً لانجازها أو صنعها .

وأهمية توزيع العمل فى نشوء الحضارة وتقدمها ترجع الى أنه هيأ للانسان المجال الى زيادة مهارته فى اتقان الأعمال ، مما أدى الى تيسيرها وزيادة عوائدها ، وفسح لكل فرد مجال الاختصاص حسب ميوله وأهلياته ، وجعل فى الامكان اشتراك عدد كبير أو صغير من الأفراد فى انجاز عمل لا يستطيع فرد واحد أن يقوم بكل ما يقتضي له من جهد أو مهارة . وهكذا كان توزيع العمل عاملا بعيد الأثر فى توسيع حدود الاجتماع وفى تقويم أسباب التعاون والمشاركة فى انجاز المشاريع . ومن ثم أصبح عاملا أساسياً فى قيام التضامن الاجتماعي بما استلزم من اعتماد حياة كل فرد على حياة الأفراد الآخرين وبجعله الفرد جزءاً من مجموع لا وجود له من دونه . ويعتبر هذا التضامن من أهم ما تتميز به حياة الحضارة عن الحياة البدائية ، فقد يجوز فى الحياة البدائية أن يتعطل أى عضو أو جزء من المجتمع من غير أن يؤثر هذا التعطيل تأثيراً ظاهرا فى حياة المجموع ، فى حين انه لا يمكن تعطيل جزء من أجزاء المجتمع المتقدم فى الحضارة من دون أن تختل

حياته كلها ؛ ذلك لأن كل صنف من أصناف الاختصاص فى مجتمع الحضارة أصبح من ضرورات الحياة العامة اذا تعطل أو توقف عن المشاركة فى المجهود العام اختل نظام الحياة فى المجتمع كله ، كما يحدث عند اضراب العمال فى صنف من أصناف الأعمال . وقد كان من تأثير هذا التماسك والتضامن أن يدرك كل صنف من أصناف الاختصاص فى المجتمعات المتقدمة فى الحضارة ، مقامه فى نظام التضامن الاجتماعي ويقدر مكانته فى الحياة العامة ويتخذ من ذلك سلاحاً يدفع عنه الاعتداء على حقوقه وسبيلا الى المطالبة بالمساواة فى الحقوق وفى الواجبات الاجتماعية ؛ حتى لقد أصبحت هذه الظاهرة التى انكشفت بها حاجة المجموع الى كل صنف من أصناف الاختصاص ، وبالتالى قدرة كل صنف من أصناف الاختصاص على شل الحياة العامة فى حالة التعطل عن العمل ، من أعظم مقومات الحرية فى الحضارة القائمة بتأثيرها فى تسوية التفاوت فى الحقوق وفى الامتيازات وفى مجالات الحياة ، وان كانت هذه التسوية لا تتحقق الا بصورة تدريجية بتزايد وعي كل صنف وانتظامه فى نقابات أو جمعيات قد تضطر فى كثير من الحالات الى التهديد بالاضراب عن العمل أو بالركون الى الاضراب فعلا فى سبيل بلوغ المقام الذى يليق بها فى الكيان الاجتماعي .

وربما كان من أهم مظاهر توزيع العمل فى الحضارة القائمة ، سيما ما يتعلق منه بالأعمال الصناعية ، انه لم يعد يستلزم اتقان

مهنة معينة بالممارسة الطويلة الأمد والمحصورة النطاق كما هو الحال فى الأعمال الحرفية ، وانما يتطلب كفاية اجمالية فى أعمال الانتاج الآلي وسبل ضبطه وتحسينه • فقد يسرت هذه الكفاية الاجمالية تحويل العمال من مشروع الى آخر ، بحيث أمكن تحويل الانتاج الى أغراض الحرب أو الى أغراض السلم حسبما تقتضي الضرورة ، كما يسرت للعمال مسايرة التطور ومتابعة التبدلات الحادثة فى أساليب الانتاج وآلاته وفسحت لهم مجال التحول من عمل الى آخر بما لم يكن ميسوراً لارباب المهن وفى الأعمال الحرفية فى نظام الانتاج القديم • فتحول الاسكافي الى حداد كان يتطلب فى الماضي قضاء مدة طويلة فى ممارسة المهنة الجديدة قبل اتقانها ، فى حين ان العامل فى مصنع آلي للأحذية لا يحتاج الى مثل هذه المدة لاتقان العمل فى مصنع للسيارات ، لأن اختصاصه فرض عليه أكتساب مهارة أجمالية فى تشغيل الآلات يسرت له هذا التحول • ولهذا الأمر أهمية كبرى فى مجرى الحضارة القائمة لأنه يقوّم وحدة حركة العمال بخلاف نظام المهن والأعمال الحرفية الذى كان عاملا فى تجزأة الطبقة العاملة فى شتات من أصناف متفرقة •

واتساع نطاق توزيع العمل لا يقف فى الحضارة القائمة عند حدود الانتاج الصناعي وانما هو يتناول جميع الأعمال الاجتماعية مثل الفلاحة والأعمال الادارية والطب والتعليم وسائر الاعمال الفنية ، حتى

لقد أصبح من أهم عوامل ارتقاء هذه الاعمال . وما من ريب فى أن الذين ينسبون المساوىء التى رافقت الحركة الصناعية الى توزيع العمل مثل تشغيل الأحداث وتحويل العمال الى ما يشبه الآلات المتحركة وهم يقومون بأعمال تجري على وتيرة واحدة لا مجال فيها الى تشغيل العقل واستغلال المواهب ، انما يلصقون بتوزيع العمل معايب النظام الرأسمالي وما يفرضه على العامل من ارهاق ؛ ولعل تناقص هذه المساوىء فى الوقت الذى تتزايد فيه خطورة توزيع العمل ويتسع فيه مجال الاختصاص يثبت براءة توزيع العمل من هذه المساوىء التى يقوّمها الاستغلال فى النظام الرأسمالى القائم .

★ ★ ★

ولقد امتدت سيطرة الانسان على قوى الطبيعة وتوسع مجال استثماره لمرافقها فى مراحل . ويقول « لويس مورگان » (Morgan Lewis H) ان الانسان اجتاز طوري الهمجية والبربرية فى ست مراحل : مرحلة الهمجية الأولى التى توصل بها الى اكتشاف النار والى استخدامها فى شؤون حياته ؛ ومرحلة الهمجية الوسطى التى انتهى بها الى أكتشاف الفخار ؛ ومرحلة البربرية الأولى التى توصل بها الى تأهيل الحيوانات واكتشاف الزراعة ؛ ومرحلة البربرية الوسطى التى تمكن فيها من صهر القصدير والنحاس والحديد ؛ ومرحلة البربرية المتقدمة التى خرج منها باكتشاف الكتابة . وقطع الانسان فى

الحضارة ثلاثة مراحل أخرى : فى المرحلة الأولى انتهى الى اكتشاف البارود ، وفى المرحلة الثانية توصل الى اكتشاف البخار ؛ وفى المرحلة الأخيرة ، وهي المرحلة الحاضرة ، اكتشف الطباعة والطريقة العلمية ويسر أسباب المواصلات فتغلغل فى مجاهل الارض واكتشف الكثير من أسرار الطبيعة وتمكن من استغلالها فى توفير حاجاته • ولعله يقف الآن على عتبة مرحلة جديدة بعد أن توصل الى فلق الذرة ، اذ لا ريب فى انه سيوفق عما قريب الى استخدام القوة الهائلة المنبعثة من الذرة المنفجرة فى توفير حاجات الحياة ومطاليبها بأقل مقدار من المجهود ، وهو غاية ما ينشده من التقدم الصناعي والعلمي •

ويتمثل التقدم الذى تحقق للانسان فى هذه المراحل فى أمرين : الأول ، امتداد سيطرته على قوى الطبيعة ؛ والثاني تميزه عن الحيوان بانشائه الحياة الاجتماعية • ففى طور الهمجية تغلب على المناخ فاستطاع أن ينتشر وان يعيش فى جميع مناطق الأرض ؛ وفى طور البربرية امتدت سيطرته الى استثمار خيرات الطبيعة فأهل الحيوانات وسخرها فى خدمته ، ووفر طعامه بوساطة الزراعة فاستقر حيث تهيأت له أسبابها ، واستخرج المعادن وتمكن من صوغها حسبما اقتضت حاجاته ؛ وفى طور الحضارة توغل فى العلم واكتشف الكثير من أسرار الطبيعة حتى توصل الى تسخير البخار والكهرباء • وتمكن بانشاء الحياة الاجتماعية أن يتحرر من أحكام تنازع البقاء كما هي سارية فى عالمي

الحيوان والنبات واكتشف التعاون الاجتماعي الذى يهدف الى ضمان خير الفرد بتحقيق المصالح المشتركة ويستعين بالتضامن الاجتماعي على مجابهة الأخطار التى يتعرض لها فى الطبيعة .

ولعل أعظم انتصار احرزه الانسان فى مضمار الحضارة ما تحقق له من التقدم فى مكافحة الأمراض وتيسير أسباب الوقاية منها . فما من مجتمع متحضر الا وتقوم فيه فى الوقت الحاضر مؤسسات واسعة النطاق لمكافحة الأمراض وتوفير أسباب الوقاية منها . وبفضل هذه المؤسسات هبطت نسبة الوفيات هبوطاً عظيماً وزاد معدل عمر الانسان زيادة تبلغ الضعف ، وانعدمت كثير من الأوبئة التى كانت من أعظم الأخطار التى هددت حياة المجتمعات الى عهد قريب مثل الطاعون والملاريا والكوليرا والجدرى والتيفوس والسل وغيرها من الأوبئة التى ما تزال تفتك بالمجتمعات المتأخرة . ويكاد يكون الانسان واثقاً كل الوثوق من قدرته على اتمام انتصاره على المرض باكتشاف العلاج لكل داء وتعيين طرق الوقاية منه ، وهو ما يزال فى أول مراحل التقدم فى هذا المضمار ؛ ولم يبق أمامه بعد هذا الا ان يكفل تعميم الوسائل التى تيسر القضاء على هذه الأمراض فى كل مكان .

وما من ريب فى أن أعظم عقبة تعترض سبيل الانتصار الحاسم على المرض هي الفقر الذى لا يمثل أعظم قوة تشيع الأمراض فحسب وانما هي أعظم معضلة تجابه الحضارة القائمة . فقد أثبتت التحريات

الاجتماعية أن الفقر والمرض توأمان لا يفترقان ، فأن سوء التغذية والارهاق الذى تكابده الطبقات الفقيرة فى سبيل كسب القوت وسوء السكن هي أعظم العوامل فعلا فى نشر الأمراض • بيد أن تأثير الفقر لا ينتهى عند هذا الحد ، لأن الفقر يلازمه الجهل وضعف الادراك وانحلال الضوابط الأخلاقية وتزايد القلق واضطراب الأعصاب وهي كلها أعوان للمرض • وعلى الرغم من ان العوامل الاجتماعية متلازمة وتؤدى كل منها الى الأخرى كما هو الحال فى صلة الفقر بالجهل وضعف الكفائة وفقدان الطمأنينة وسوء السلوك ، فمما لا ريب فيه أن الفقر أكثر هذه العوامل نفوذاً وأبعدها أثراً ، ولهذا أصبح موضوع مستوى المعيشة والاعمار الاقتصادى موضع عناية جميع الحكومات سواء منها التى تقصد من وراء هذه العناية تحقيق الحياة الموفورة أو التى تريد بها تهدأة الخواطر ودفع الأخطار التى تتعرض اليها المصالح الخاصة •

وتتزايد فى الوقت الحاضر ثقة الانسان بقدرته على معالجة مشاكل الفقر والمرض والجهل بفضل ما تحقق له من التقدم فى مضمار الانتاج الصناعي وفى ميدان العلم والاختراع وبفضل ما يبذل من الجهود لحل العقدة الوحيدة التى استعصت عليه وهي معضلة تعميم النظام الاجتماعي الذى ييسر له تحويل وسائل الحضارة وأسبابها الى خدمة الانسانية جمعاء بدلا من أن تكون وسائل صراع بين الأفراد وبين الجماعات والطبقات والأمم •

وقد كان رجاء المفكرين الطوبائيين والانسانيين أن تحل هذه المعضلة عن طريق الدعوة الى الفضيلة وتقويم الاخلاق وتدعيم بواعث الرحمة والشفقة الاحسان ، ولكن هذا الرجاء خاب منذ زمان ، وراح يتزايد فى الوقت الحاضر رجحان الرأي الذى يميل الى حل هذه المعضلةعن طريق النظام الاجتماعي الذى يخرج وسائل الانتاج من سيطرة المصالح الخاصة ويجعلها ملكاً عاماً بوساطة تأميمها ، ويوجه الانتاج على خطط غايتها توفير الحاجات الاجتماعية وليس الربح أو ضمان المصالح الخاصة ، ويحرر قوى الانسان ويجلى مواهبه وينمي ملكاته ويحول مجهوداته من ميدان التصادم الى مضمار التعاون الانشائي الذى يهدف الى تحقيق الخير العام .